

نِداءُ البُحيرة

بقلم : د . عبد العزيز عتيق

رسم : مصطفى حسين

دار الشروق

نِدَاءُ البُحَيْرة

بقلم : د. عبد العَزيز عَتيق
رسم : مُصطفى حسين

دار الشروق

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار الشروق

بيروت: ماراليأس - شارع سيدة صيدنايا - بناية صفا
ص.ب: ٨٠٦٤ - برقياً: داشروق - تلكس ٢٠١٧٥١٤ SHOROK - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥ ٨٦٧٥٥٥ - ٣٠٧٩٨٤

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٢٩٣٣٣ / ٣٩٣٤٥٧٨
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس ٩٣٠٩١ SHROK UN
٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر - ت: ٢٦٢٣٣٩٨
٢٦٢٣٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧

نِداءُ البُحَيْرة

١

كانَ مصطفى صَيَّاداً في بُحيرة مِن بُحيرات مصرَ . وقد أَطلق عليه زُملاؤه لقبَ « الرَّيِّس » لأنه كان أمهرَهم في الصيد ، وأَعلمَهم بمَكامِنِ السمك ، وأَعرفَهم بطُرُقِ البُحيرة ، وأَكثرَهم عَوْناً لهم . أمَّا هُوَ فكان بطبيعة عملِه لا تَهُمُّه الألقابُ بمِقدارِ ما يَهُمُّه نجاحُه في حِرْفَتِه .

وكان « للريس » مصطفى صديقٌ وزميلٌ عزيزٌ هو الحاجُّ درويش ، وقد دَامتْ صَداقَتُهما وزَمالَتُهما أكثرَ من ثلاثين عاماً .

كانا يلتقيان كلَّ صباحٍ حيث يَرْسُو قارِبُهُما على الشاطئ . ومن هناك يخرجان به جَادِفَيْنِ ، حتى إذا وصلا إلى حقولِ السمكِ أَلْقيَا بِشَبَكَةِ الصيدِ هُنا وهُناك .

وتَمرُّ الساعاتُ عليهما في عملٍ مُثير : بين سَمَكٍ يُصادُ ثم يَقفِزُ ثانيةً في الماء ، وآخرَ يُصادُ ويَبقَى في القارِب . وفي نهاية المَطاف يعودان إلى الشاطئ ، بقارِبهما ، وقدِ امتلأ برزقٍ وافرٍ من السمك يبيعانه ، ويقتسمان ثمنَه بالتَّساوي .

ومع أنَّ الحاجَّ درويش كان يكبُر « الريس » مصطفى بنحو عشْرِ سنواتٍ ، فإنه كان يترك له تدبيرَ كلِّ شيء .



ولم يحدثْ أن اختلفا ، فما بينهما من صداقةٍ وزَمالةٍ كان عِندَهما أثمنَ من المال وأَغلَى من الكَسْب !

وكان الحاجُّ درويش مُنْذُ وفاةِ زوجتِه ، يعيشُ وَحيداً في كُوخِهِ المجاورِ لكُوخِ صديقِه . كان يَتَّخذُ من كُوخِهِ مكاناً للنَّوم فقط ، أمَّا معظمُ وقتِه فكان يَقضيه إمَّا في الصيد أو في السَّمَرِ مع زَميلِه وأسرتِه في المَساء .

٢

وحدثَ في يومٍ من أيامِ الشتاءِ أَنْ عادَ الحاجُّ درويش مع زميلِه منَ البحيرةِ ، وقد غلبَ عليه سُعالٌ لم يَشهَدْ مِثلَه طَوالَ حياتِه .

لقد أُصيبَ بهذا السُّعالِ مُنْذُ زمنٍ طويل ، وكان يُعاوِدُه من وقتٍ لآخرَ . ولكنَّ وَطْأَةَ السُّعالِ عليه في هذه المرةِ ، كانت أَقسَى منها في أيِّ مَرَّةٍ سابقة .

ولِحاجَتِه إلى مَن يَرْعاه في مرضه ، نَقلَه « الريسُ » مصطفى إلى كُوخِهِ وظلَّ بجوارِه يُمرِّضُه ويُسَرِّي عنه .

وذاتَ يومٍ اشتدَّ عليه السُّعالُ حتى أصبح قريباً من الموت . وكان رأسُه على ذراعِ صديقِه ، ومِن حولهِ أُسْرةُ الصديقِ تتألَّمُ وتَدعو له .

وبينما كانت شمسُ المَساءِ الغاربة تكاد تلمَسُ سَطْحَ البحيرةِ ، كان الحاجُّ درويش ، وهو في النَّزْعِ الأخيرِ ، يتطلَّعُ من نافذةِ الغرفةِ صَوْبَ البحيرة . وكأني به يُلقي نظرةَ وَداعٍ على مَسْرَحِ عملِه ونشاطِه ... على البحيرةِ التي كانت كلَّ عالَمِه ودُنْياهُ ، والتي كان يعيش فيها نهاراً ، ويَحلمُ بها ليلاً !

وفجأةً غابتِ الشمسُ في جَوْفِ البحيرةِ ، وفاضَتْ روحُ ذلك الصيَّادِ الشيخِ إلى بارِئِها ، وخيَّم على الكُوخِ وأَهْلِه حُزْنٌ وظلام !

٣

قالت زوجةُ « الريس » مصطفى ذات صباحٍ لزوجها :

ـ أعظَمَ اللهُ أجرَك يا « بو محمد » . إلى متى الحزنُ ؟ ! لقد مَرَّ الآنَ على وفاة الحاجِّ درويش أسبوعان ، وأنت كما أنت حزينٌ لا تبارحُ الكُوخَ . فَدَعِ الحزنَ فما عادَ يُفيد ، واحْمِلْ شبكتَك وهَيَّا للصيد ، فالقاربُ على الشاطئ ، والسمكُ في البحيرة . واللهُ يباركُ في عُمْرِك . وهذا حالُ الدنيا !

ثم لا تنسَ أنَّ وقتاً طويلاً قد مَرَّ الآن دُونَ أن يدخلَ البيتَ فيه قرشٌ واحدٌ » .

وعندما سَمِعَ الرجلُ زوجتَه تَنْطِق بالجملةِ الأخيرةِ ، شعر كأنَّ عقرباً قد لَدَغَتْهُ ؛ فلم يكن طَوالَ حياتِه بالذي يُطيقُ أن يرى بيتَه في عُسْرٍ أو حَاجةٍ . وعلى مضَضٍ رفعَ رأسَه ونظر إلى زوجته لحظةً ، ثم قال لها في انْكسار :

ـ رُبَّما كنتِ على حَقٍّ فيما قُلتِ ، ولكنْ كيف أخرجُ إلى البحيرةِ وَحْدِي ؟ أَلَسْتُ في حاجةٍ إلى مُساعدٍ يعمَلُ معي في القاربِ منذ اليوم ؟ »

في ذلك الوقتِ كان يجلس قريباً منهما ولداهما : محمدٌ وبَشير . كانَ كِلاَهُما يتظاهرُ بالانْصرافِ إلى عملٍ في يدِه ، على حين كانَ كِلاَهُما يُصغي إلى ما يدورُ من حديث بين والديه . ولم يَكَدِ الأبُ يُقَرِّرُ حَاجتَه إلى مساعدٍ يخرجُ معه في القاربِ حتَّى صاحَ ابنُه محمدٌ يخاطبُه :

ـ وماذا نعملُ نحن هُنا يا أبي ؟ وما فائدتُنا لك إذا لم نُعاونْكَ في عملِك ؟ حقيقةً إننا لم نبلُغْ بَعْدُ مَبلغَ الرجال ، ولكنَّ سَواعدَنَا قَويَّةٌ مَفتولةٌ ، وبها نستطيع أن نَدفعَ المجاديفَ بِقوّة ، ونُسَيِّرَ القاربَ في كلِّ اتِّجاهٍ . ونحن نُجيد السباحةَ ولا نخشى الأَمْواجَ إذا هَاجَتْ . ونحن نعرف كيفَ نَرْفُو الشِّبَاكَ

إذا تَمزَّقتْ ، وكيف نلقي بها في الماء فارغة ، ثم نَسحبُها إلى ظهر القاربِ ، دون أن تُفْلِتَ منها سمكةٌ واحدة . ألمْ تُعَلِّمْنا كلَّ ذلك ؟ وشيءٌ آخَرُ ، إننا نستطيعُ أن نبيعَ السمكَ بثَمنٍ أَغلى مما تبيعُهُ به أنتَ . فنحن نُجيدُ المُساوَمَةَ وأنت لا تُساوِمُ أبداً » .

ولم يَكَدِ الأبُ يسمعُ الجملةَ الأخيرةَ حتَّى انْفرجَتْ شَفَتاهُ عن ابتسامةٍ لم يُطِقْ حَبْسَها ، ثم وَجَدَ نفسَه يقول لابنه محمد :

ـ نعم ، قد تستطيعان يا بُنيَّ أن تفعلاَ كلَّ ذلك ، ولكنِّي لا أُريدُ لكما الصَّيْدَ حِرْفةً في المستقبل . إنَّها حِرْفةٌ شاقَّة ، يتعرَّضُ صاحبُها لأخطارِ البحر . كذلك لا يمكنُ الاعتمادُ عليها كمَوْردِ رِزْقٍ ثابتٍ . فيوماً يُواتي الحَظُّ الصيَّادَ منَّا فيعودُ برزقٍ طَيِّب ، وأياماً يَتخلَّى عنه الحظُّ فيرجعُ خاويَ الوِفَاضِ ، أو بالقليلِ الذي لا يكاد يُقيمُ حياتَه ومَعاشَ أهلِهِ !

لا تفكرْ يا ولدي أنت أو أخوك في هذا العملِ يوماً مَا ، وحَسْبُ الصَّيْدِ واحدٌ من الأسرةِ هُوَ أبوكما . لقد أتْمَمْتُما هذا الصيفَ دراستَكما الثانويةَ بتقدُّمٍ . وأملي أن أَراكَ يا محمدُ مهندساً ، وأَراكَ أنتَ يا بَشيرُ طبيباً » .

٤

توقَّف الوالدُ لحظةً ثم أَخذَ يتفرَّسُ في وَجْهَيْ وَلدَيْه ؛ كأنَّه يَودُّ أَن يَرى مدَى تأثيرِ كلامِه عليهما . وسُرْعَانَ ما ابْتدرَهُ محمَّدٌ قائلاً :

ـ إنك يا أَبي رَقيقُ الحالِ ، وقد آنَ أَنْ تستريحَ . لا نَنْسَى كم كَافَحْتَ مِن أَجلِ تعليمنا حتى نهايةِ المرحلةِ الثانوية . وَحَسَنٌ أنك تَودُّ أَنْ تراني يوماً مَا مُهندساً وأَن ترى بَشيراً أَخي طبيباً ، ولكنْ مِن أَينَ لك المالُ الذي يتطلَّبه التعليمُ الجامعيُّ ؟

كَلاَّ يا أَبي ، كَلاَّ ! لا مدرسةَ ولا جامعةَ بعد اليوم .. قد يكون الاشتغالُ بالصيدِ أَو بغيرِهِ مِن الأعمالِ اليدويةِ أَو المِهَنيةِ مُتعِباً ؛ ولكنّه عملٌ إنسانيٌّ ، وكلُّ عملٍ إنسانيٍّ محترمٌ نافعٌ . إننا مُنْذُ الغَدِ سنحملُ الشِّباكَ ونَسْبِقُك إلى البحيرة » .

قال الوالد :

ــ أراك يا بُنَيَّ تتحدَّثُ كما لو كان أخوك يُوافِقُكَ على مَا قلتَ .. ما رأيُك أنتَ يا بَشيرُ ؟ »

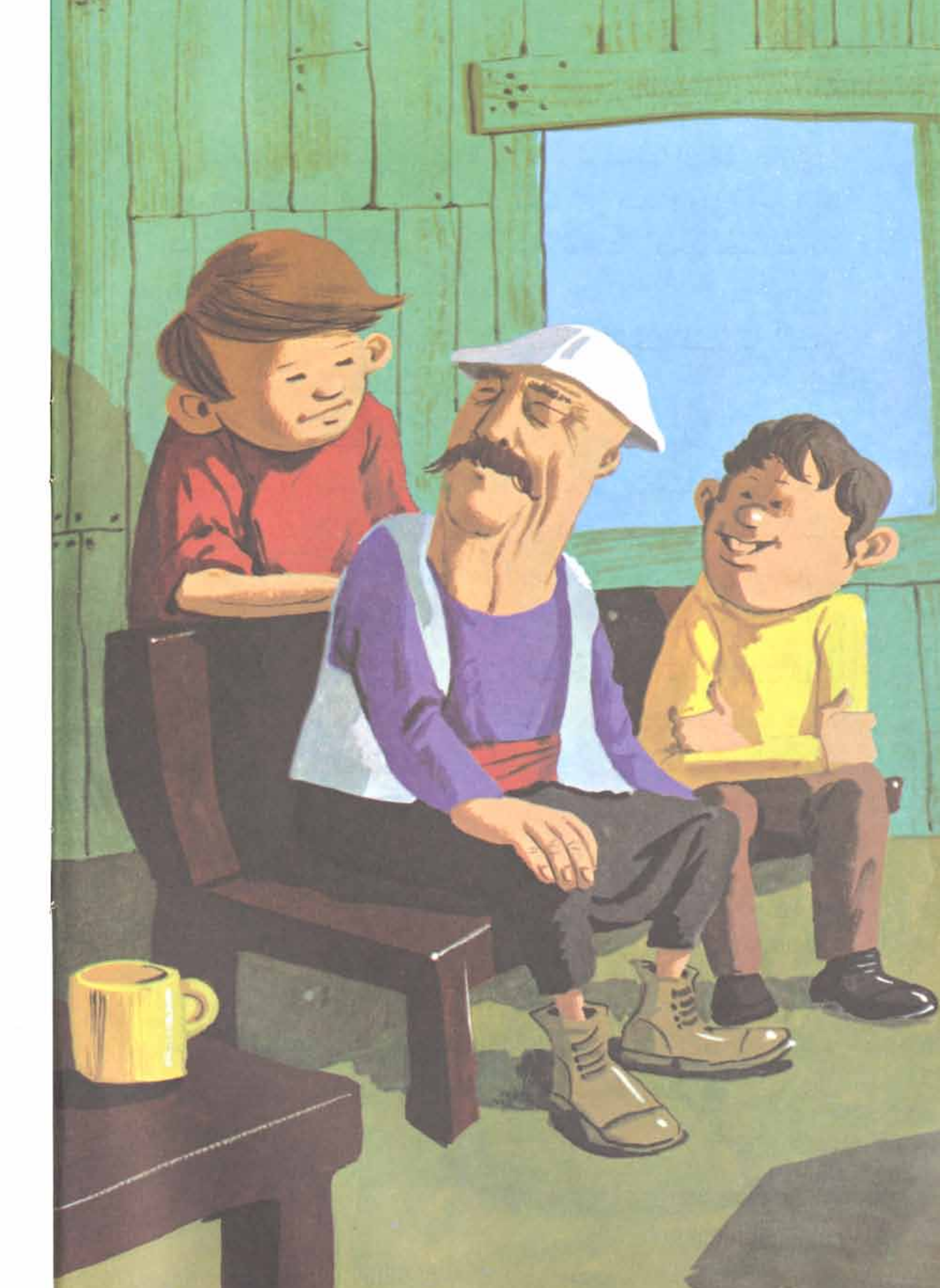
فأجاب بَشيرٌ على الفَوْرِ :

ــ ليس ما حدَّثَك به أخي محمدٌ وليدَ الساعة أو رأيَه وَحْدَهُ . إنه رَأْيٌ انتهينا إليه من قبلُ ، وقد حانَ وَقْتُ مُصارَحَتِكَ به .

لقد سمعتُك تُنفِّرُنا مِنَ اتِّخاذِ الصيدِ حِرْفةً ، وسمعتُك تحدِّثُنا عَمَّا في الصيدِ مِنْ مَشَقَّةٍ وأخطار ، وأيُّ عملٍ يَخلُو من هذا أو ذاك ؟ وأيُّ حَلاوةٍ لعملٍ لا يُصاحبه الجَهدُ والمَشَقَّةُ ؟ وما قيمةُ الحياةِ بغَيْرِ سَعْيٍ وكَدٍّ ؟ ثم لا يَخْفَى عليكَ يا أبي أنَّ حُبَّ الصيدِ يَجري في دمائنا . لقد نَشَأْنا في كُوخِ صَيَّاد ، وأكواخُ الصيادين تُحيطُ بنا مِن كلِّ جانبٍ ، وأحاديثُنا في جُملتِها تَدُورُ حَوْلَ الصيدِ والصيَّادين ، فكيف نستطيعُ الفِرَارَ من الصيد ؟

إن البحيرةَ تُنادِينَا دائماً كأَنَّ لها علينا سُلْطاناً . في كُلِّ مَرَّةٍ نَسعَى إليها ، وفي كُلِّ مَرَّةٍ نسمعُ غِناءَ الصيادين . وفي كُلِّ مَرَّةٍ نَرَى المجاديفَ تُوقِظُ البحيرةَ الهاجعةَ في الفجر ــ يَزدَادُ بنا الحنينُ والشوقُ إليها وإلى الصيد .

فبالله عليك لا تَثْنِنَا عن عزمِنا ، ودَعْنَا مِنَ الطبِّ والهندسة . وَتأَكَّدْ أنَّ ما تعلَّمناه في المدرسة لن يَضيعَ هَباءً . إنَّ ما تعلَّمناه سيكون خيرَ مُعينٍ لنا على



إتقانِ الصيد . فأَتِحْ لنا الفرصةَ لما نَوَدُّ وقلْ يا أبي : إنك موافق ، وإنك ستصطحبُنا معك مُنذُ الغَدِ » .

٥

قال الوالدُ وقدِ انْبَسَطتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ الصّارِمِ :

ـ قبل أن أقولَ « نعم » لا بُدَّ من كلمةٍ مِنّي ووَعْدٍ منكما . عندما حدَّثْتكما عَنِ الصيدِ ومشقَّتِهِ لم أقصِدْ مطلقاً تَثْبيطَ هِمَّتِكما . ولكنْ قَصَدْتُ اختبارَكما . والحمدُ لله على أنْ أَراكُما قد نجحتُما في الامتحان ، وبَرْهَنْتُما على أنَّ التعليمَ أثمرَ فيكما . لِيكنْ لكما إذنْ ما تُريدان . وستخرُجانِ للصيد معي منذُ الغدِ ، وسأَبذُلُ جُهْدِي في تَلْقينِكُما كلَّ فنُونه .

تلك هي الكَلِمةُ التي كان لا بُدَّ أنْ أقولَها . أمَّا مَا أَتوقَّعُه منكما فهو أن تَعِداني وَعْداً صادقاً أكيداً ألاَّ تُساوِمَا أبداً في حياتكما .

فالمُسَاوَمَةُ صِفَة لا تُشَرِّفُ الإنسانَ ولا تَليقُ به . إنَّها تَدُلُّ ، فيما تَدُلُّ ، على الشَّراهَةِ والطَّمَعِ والجشَعِ .

والمُسَاوَمةُ ، قبلَ هذا وبعدَه ، مَضْيَعَةٌ للوقت والجُهْد ، ومُوغِرَةٌ للصُّدور والنفوس ، وقد تُؤَدِّي في النهاية إلى ما لا تُحْمَدُ عُقباه . والغَلَبَةُ فيها لا تُسَمَّى انتصاراً ، وإنما هي ضَرْبٌ من الغِشِّ والخَديعة والاحْتيالِ .

فاذا اراد أَحَدُكُما أن يبيعَ ما اصطاد فلْيُحَدِّدْ أَسعارَه ، ولْيتمسَّكْ بها ، ولْيقُلْها كلمةً واحدةً في اعتدال . عِندئذٍ يَطمئِنُّ إليه الناسُ ويثقونَ به ، ويتسابقونَ في الشراءِ منه . وبهذا يُبارِكُ الله له في الرزقِ ، ويُوَسِّعُ عليه فيه ، ويَجعلُ له مِنَ القليلِ كثيراً .

فَهَلْ عَرَفْتَ يا محمدُ لماذا لا يُساوِمُ أبوك ؟ إذا كنتَ قد عَرَفْتَه وَوَعَيْتَه فلْتَعِدْني أنت وبشيرٌ بألاَّ تُسَاوِمَا مَدَى الحياة . هل تَعِدَانِ ؟ »

ـ نعم ، نَعِدُكَ يا أَبَانا ، ونشكرك .

عندئذٍ قالَ الأبُ وهو يَنْهَضُ للخروجِ لقضاءِ بعضِ شُؤُونِه :

ـ إذنْ على بَرَكةِ الله . وغَداً مَوْعِدُنا عَقِبَ صلاةِ الفجر . فالقارِبُ ، كما قالت أُمُّكُما ، على الشاطئ ، والسمكُ في البحيرة ، ونحن ، كما يبدو ، على أتمِّ استعدادٍ للعملِ والكِفاح » .

٦

أذَّنَ المؤذِّنُ لصلاةِ الفجرِ فاستيقظَ الوالدُ وَابْنَاهُ ، ثم سَعَوْا إلى المسجدِ المجاورِ فأدَّوْا فَريضةَ الصباحِ ، ثم عادوا إلى البيتِ حيثُ كان الفَطورُ مُعَدًّا فتناولوه معاً ، ثم خرجوا يحملون أدواتِ الصيدِ وما أعدَّتْه الأمُّ من طعام .

وفي طريقِهِمْ إلى الشاطئ انعطف الوالدُ يَتْبَعُه وَلَداه إلى مَقْبَرَةٍ على جانبِ الطريقِ ، حيثُ وقفَ « الريسُ » مصطفى أمامَ قَبرِ صديقِهِ القديمِ الحاجِّ درويش ، يقرأ له الفاتحةَ في إطراقٍ وخُشوعٍ وقد فَاضتْ عيناه بالدَّمع .

وطال وقوفُه أمامَ القبرِ بعضَ الوقت ، فنبَّهه ولدُه بشيرٌ فأفاق الرجلُ مِنَ استغراقه ، وسار مَعَ وَلَدَيْه تقودُه قدماه إلى الطريق . ومشَى ثلاثتُهم صَامِتِين . ومَن يَدْري ؟ فلعلَّ الوالدَ كان يَغوصُ في أغوارِ الماضي ، ولعلَّ وَلَدَيْهِ كانا يُحلِّقان في سماءِ المستقبل !

وعندما بَلغُوا الشاطئ ، كان الصيادون الآخَرون قد بَدَأُوا يتوافَدون ، ويتجمَّعون عِندَ المَرْسَى ، لإعْدادِ قَوارِبهم لعملِ اليومِ الجديد .



كان ضَبابُ الصباحِ يَلُفُّهم فيَبْدُون كالأَشْباحِ ، لا تكاد تَراهُم ولكنْ تسمعُهم يَتَنادَوْن ويُحَيِّي بعضُهم بعضاً . وقد تسمعُ منهم هُنا وهُناك مَن يَدعُو الله أن يجعلَ حَظَّه من صيْدِ اليومِ سعيداً .

وبينَ هذه الأشباحِ المُضْطَرِبَةِ في ضَبابِ الصباحِ ، وقفَ محمدٌ وبشيرٌ بجانبِ وَالدِهِما مُعجَبَيْنِ بجمال الطبيعةِ حَوْلَهما . وشيئاً فشيئاً أخذ الضَّبابُ يَرِقُّ ويتلاشَى ، وبَدأَتِ الأشباحُ المضطربةُ تظهرُ على حقيقتِها للعِيَان .

ولم يكدِ الصيادون يَـرَوْنَ « الريِّسَ » مصطفى يُعِدُّ قارِبَه بمساعدةِ ولدَيْه ، بعدَ أنِ احْتَجبَ عَنِ العملِ أسابيعَ ، حتى أقبلوا عليه يُحيُّونه ويُعَزُّونه ثانيةً في صديقِهِ وزَميلِهم الحاجِّ درويش .

ولما عَلِمُوا أنَّ محمداً وبشيراً ، قد حضرا ليشتغلا معه بالصيدِ منذُ اليومِ ، شعروا في أنفسهم بالزَّهْوِ والفخر . فما كان يدورُ بخاطرِهم أنَّ وَلدَيْه ، بعد أنْ تعلَّما ، يُفَضِّلانِ الصَّيدَ على أيِّ عملٍ آخرَ .

ثم انتشرتِ القواربُ على سَطْحِ البحيرةِ كأنها الجيشُ يَزحفُ إلى حقولِ السمكِ ومَكَامِنِه ، وكلٌّ يُمَنِّي نفسَه بصيدٍ وافرٍ ورزقٍ حلال ، يعودُ به في النهايةِ إلى أهلِه وأولاده .

٧

واطْمأَنَّ « الريِّسُ » مصطفى في صدرِ القارِبِ ، ينظرُ تارةً إلى البحيرةِ التي أَوْحَشَتْهُ بعدَ أنْ غابَ عنها بِضْعَةَ أسابيعَ ، وتارةً أُخْرى إلى وَلدَيْه وهما يَجْدِفان بكلِّ ما فيهما من عَزْمٍ وإصْرارٍ ، كأنما يُريدان إقناعَه بالاعتمادِ عليهما منذُ اليومِ الأَوَّلِ .

ولمَّا أَوْغَلَ القاربُ في البحيرةِ ، واختفى الشاطئ عنِ الأنظارِ ، بدأ الوالدُ يقودُ ولديْه ، ويُرشِدُهُما إلى مسالكِها . وفي أثناءِ ذلك كان يَدُلُّهما على حُقولِ السمكِ ، ويُحَدِّثُهما عنْ أنواعِهِ التي تَنمو في كلِّ حقل .

كذلك كان يُلَقِّنُهما دُروساً في طُرُقِ الصيدِ التي تختلفُ تبعاً لاختلافِ الأماكِنِ والأجواءِ ، ويُبَصِّرُهما بالعلاماتِ التي يَسْتَدِلاَّنِ بها على امْتلاءِ المكانِ بالسمكِ أو إقفارِه منه .

ثم مَرَّ اليومُ الأوَّلُ وقد تَعلَّما فيه الكثيرَ ، وعَادَا في نهايتِه مع والدهما بصيدٍ طَيِّب . وفي المَسَاء وحَوْلَ مائدةِ العَشاء أخذا في فَرَحٍ يَقُصَّان على أُمِّهما مُشاهداتِ اليومِ الأوَّلِ ومُغامَرَاتِه .

ومَرَّتِ الأيامُ مُتشابهةً . وفي كلِّ يومٍ يَزْدادانِ عِلماً بالبحيرةِ وفنونِ الصيدِ . لقد أَقْبَلاَ على هذه الحِرْفةِ مُنذُ البدايةِ تَلبيةً لرغبةٍ مُلِحَّةٍ استولتْ عليهما مُنذُ الصِّغَر ؛ ولهذا اسْتثمَرا فيها كلَّ ما لَديْهما من عِلْمٍ ومَواهبَ ، وكلَّ ما كَسَباهُ مِن خِبْرةٍ وتَجرِبةٍ . ولم يَنقضِ عامانِ حتى أجادَا الصيدَ وأَلَمَّا بكلِّ ما يتصلُ به من شئُون !

وكانتْ عَلاَقتُهما بسائرِ الصَّيَّادينَ تقومُ على الأُخُوَّةِ وحُبِّ الخير لهم . ولم يحدُثْ أنْ تحرَّكَتْ في نَفْسَيْهما نَوازِعُ الحسَدِ لصيَّادٍ أو الغَيْرةِ منه . كانت فَرْحَتُهما لزميلٍ يَعُود بصيدٍ ثمينٍ تُعادِلُ فَرْحَتَهُما لنَفْسَيْهما . وكان أَسَفُهما لآخَرَ يَعُودُ صَفْرَ اليدين مِنَ الصيدِ بمقدار أسفِه هُوَ . وأَبوهما يراقب كُلَّ ذلك في صَمْتٍ وبلا تَعْقيبٍ ، كأنَّه لا يَعْنِيه مِنَ الأمرِ شيء !

من أجل ذلك أصبحتْ لهُما سُمْعَةٌ حسنةٌ ومكانةٌ خاصَّةٌ في نفوسِ صَيَّادي البحيرة . ولكنَّ الأمرَ لم يَسلَمْ من وُجودِ مَن يَحسُدُهما علـى ما يَتمتَّعانِ به من سُمْعةٍ حسنةٍ بَينَ الصيَّادينَ .

٨

كانتِ الأمورُ تسير معهما من حَسَنٍ إلى أحسنَ ، ولم يَشعُرَا على طول الأيام بالنَّدَمِ للانصرافِ عنِ المدرسةِ إلى الصيد . ولكنَّ أمْراً واحداً نَغَّصَ عليهما عَيْشَهُما وأقلقَ بَالَهُما ، ذلك الأمرُ هو حالةُ مَعِيشةِ الصيادين . فقد كانتْ في جُملتِها غَيرَ سارَّةٍ .

كانَ دَخْلُ الواحدِ منهم يَوْمِيًّا يُؤهِّلُهُ لمعيشةٍ لائِقةٍ ، لو أنه كان حَسَنَ التدبير . كان هُناك مَن يُنفق القليلَ من المال على بيتِه ، والكثيرَ منه على نَفْسِه ، ومَنْ يُنفقُ دَخْلَه في المقاهي على أصدقائه . وأُسْرَتُه في أشدِّ الحاجةِ إلى بَعْضِه ، ومَن يُبَذِّرُ دَخْلَه بسَفَهٍ كأنه يعمل بالمَثَل العَامِّي القائلِ : « أَنْفِقْ ما في الجيبِ يأتيك ما في الغيب ! »

ثم كان هُناك مَن مَاتُوا مِنَ الصيادين ولم يتركوا لأَوْلاَدِهم سِوَى الفقرِ والبؤْسِ ؛ ومَن أَعجزَهُ المرضُ أو قَعدَتْ به الشَّيْخوخَةُ عن العملِ والكَسْبِ ، فأصبحَ هُوَ وأُسْرتُه في حاجةٍ مُذِلَّةٍ وهَمٍّ مُقيم !

ذلك هو ما نغَّصَ على الشقيقين التَّوْأَمَيْن عَيْشَهُما وأقلقَ بالَهُما . كانتْ مَناظرُ العَوَزِ والحاجةِ التي تقابِلُهما في الطريق تَملؤهما أَلَماً وشفقةً ، فلا يملِكُ كِلاَهُما إلاَّ أن يُعاوِنَ بما يستطيعُ مِنْ مَالِه القليلِ المُدَّخَر !

ولكن كثيراً ما كان يَسألُ كِلاَهُما نفسَه : « وما نَفْعُ هذه المَعُونةِ الضئيلةِ تأتي منه أو مِنْ أخيه ، وهُناك عشَراتٌ وعشَراتٌ ممن هُمْ في أشدِّ الحاجةِ إلى المعونة ؟ وهل يستطيعُ هُوَ وأخوه أن يُعينا كُلَّ هؤلاءِ ؟ وهل هذا هو العِلاجُ المستأصِلُ للدَّاء ؟ »

كانا يسهرانِ الليالِيَ الطِّوالَ يُفكِّرانِ في وَسيلةٍ يَستنْقِذانِ بها أبناءَ مِهْنتِهما مِنْ بَراثنِ الشقاء ! وبينما هما يتحَدَّثانِ ذاتَ لَيلةٍ حَوْلَ هذا الأَمْرِ ، شَرَدَ

بشيرٌ بذهنِهِ هُنَيْهَةً ثم عادَ يصيحُ بأخيه :

ـ لقد اهتَدَيْتُ ... اهتديتُ إلى العِلاج ! الجمعيةُ ! الجمعيةُ ! إنَّها العِلاجُ لكلِّ ما يَتَفَشَّى بين ظَهْرانَيْنَا مِن عِلَلٍ وأمراضٍ ! »

ثم تَوَقَّفَ بَشيرٌ لحظةً يستجمع نَفسَه مِنْ نَشْوَةِ الفكرةِ التي طَرَأَتْ له ، فاندفعَ أخوه محمدٌ يسأله في دَهْشَةٍ وعجبٍ :

ـ الجمعيةُ ... ؟ أيَّ جمعيةٍ تَعْنِي ؟

ـ جمعيةُ الصيَّادين . جمعيةُ صيَّادي البحيرةِ طَبْعاً . إنَّها العِلاجُ والضَّمانُ لنا جميعاً من كلِّ شيءٍ . فإذا أنشأْنَاها ، وأصبح كلُّ صيادٍ منا عُضْواً فيها ، فإنَّ القُروشَ القليلةَ التي سيدفعُها كلٌّ منَّا في صُورةِ اشتراكٍ ، ستَنْمو وتزدادُ على مَرِّ الأيام .

عنْ هذا الطريقِ سيُؤَمِّنُ كلُّ واحدٍ منَّا نفْسَه وأُسْرَتَه ضِدَّ الفقرِ والمرضِ والعجْزِ والشَّيْخوخةِ . وبفضلِ هذه الجمعيةِ ستختفي مِن بيننا كلُّ مظاهرِ البؤسِ والفاقةِ المُلِحَّةِ .

لن نَـرَى بعدَ تكوينها ونُمُوِّها الطفلَ الذي تَحملُه أمُّهُ وقد وُلِدَ مُتْعباً مُجْهَداً قبلَ أن يبدأَ حياتَه !! لا ولنْ نَـرَى تلك المناظرَ التي تُؤذِي العيونَ وتُؤْلِمُ النفوسَ !!

فإذا نجحْنا في تحقيقِ هذا المشروعِ فَسَنُنْشِئُ نَادِياً لنا نُمارِسُ فيه بعضَ ضُروبِ النشاطِ التي نُحبُّها ونألَفُها . أليسَ ذلكَ أفضلَ مِنَ الجلوسِ في المقاهي وإضاعةِ الوقتِ والمالِ فيما يَضُرُّ ولا يَنفع ؟ »

قال محمدٌ :

ـ وهل تظنُّ أنَّ ذلك أمرٌ سهلٌ ؟

ـ إنَّ الأمورَ ، كما تعلَمُ يا أخي ، لا تُقاسُ بسُهولتِها أو صُعوبتِها . إنما تُقاسُ الأمورُ بفائدتِها ونفْعِها . فإذا كان مشروعُ الجمعيةِ هذا مفيداً فكلُّ صَعْبٍ يَهونُ في سبيله .

ـ أمَّا أنه مشروعٌ مفيدٌ فهذا ما لا يختلفُ فيهِ اثنانِ . وأَراكَ مُتَحمِّساً له كلَّ التَّحَمُّسِ ، فإذا كنتَ قد وَطَّدْتَ العزمَ على تحقيقِه فأنا أَوَّلُ المشتركين بعدَك في الجمعية .

٩

وخرجَ الأخَوَانِ يَدْعُوانِ لمشروعِ الجمعيةِ بينَ الصيَّادين . وكان والدُهما بطبيعةِ الحالِ أَوَّلَ مَن اتَّجهَا إليه . ولكنَّه رَفَضَ أن يَشُدَّ أَزْرَهُما أو يشتركَ في الجمعية ! وكلُّ ما قالَه هُوَ أنها مشروعٌ خياليٌّ ، وأنَّ مِنَ الأفضلِ لهما أن يترُكَا هذه الأفكارَ الغريبةَ وينصرفَا إلى عَمَلِهِمَا .

كان رفْضُه صَدْمةً شديدةً لهما غيرَ مُتَوَقَّعَةٍ . وإذا كان هذا هُوَ مَوْقِفَ أقربِ الناسِ إليهما ، فماذا يكونُ إذَنْ مَوْقِفُ الآخَرِينَ ؟

وعاد بشيرٌ إلى أخيه محمد يسأله :

ـ ألا تزالُ ، على الرغمِ من مَوْقِفِ والدِنا ، تُؤْمِنُ بأنَّنا على صَوابٍ ؟

ـ بَلَى .

ـ سوف تقابِلُنا صَدَماتٌ كثيرةٌ غيرُ هذه ، ألاَ تُضْعِفُ منْ إيمانِك ؟

ـ هَيْهاتَ أن يُضْعِفَ من إيماني أيُّ شيءٍ .

ـ إذَنْ نَمضِي على بركةِ اللهِ في سبيلنا مهما كانتِ الصِّعابُ .

وانطلق الأخَوَانِ يعملانِ ويَرسُمانِ الْخِطَطَ ، وشَغَلا كلَّ وقتِ فراغِهما بالدَّعْوَةِ إلى مَشروعِ الجمعية .

كانا يتنقَّلانِ مِنْ كُوخٍ إلى كُوخٍ ، ومِنْ مكانٍ إلى آخَرَ ، مُحَدِّثَيْن كلَّ مَن يقابلانِ مِن زملائهما الصيادينَ بفوائدِ الجمعيةِ التي تَعُود عليهم وعلى أولادِهم في الحاضرِ والمستقبل .

وكان الزملاءُ يلقَوْنَهُما بآذانٍ غيرِ صاغيةٍ وقلوبٍ غيرِ واعيةٍ . مِنهم مَن كان يُعْرِضُ عن جهلٍ ؛ لأنه لا يَدْري كيف يُعطِي مِن ماله ، ثم لا يعرفُ ماذا يكونُ مَصيرُ هذا المالِ . ومنهم من كان يُعْرِضُ عن عِلْمٍ وَفَهْمٍ بباعثِ الحسدِ والغَيْرةِ ، فهو لا يُطيقُ أن يَـرَى مشروعَ الجمعيةِ يتحقَّقُ على يَدَيْ هذين الشابَّين وليس على يديه هُوَ !

مِن أجلِ هذا كانتِ المعارضةُ قويةً ، واستخدمتْ في مُحاربَةِ المشروعِ أسلحةً منَ التَّهكُّمِ وَالسُّخْرِيَةِ والتَّشكيكِ والتَّشهيرِ والشَّائعات . وكاد السُّذَّجُ مِنَ الصيَّادينَ يَظُنُّونَ بهذين الشَّابَّين الظُّنونَ .

ومع كلِّ ذلكَ لم تَزِدهما المعارضةُ بكلِّ أسلحتِها ووسائلها إلا إيماناً بسلامةِ المشروعِ وفائدتِه ، كانا يقولان لصيَّادٍ مثلاً :

ـ ماذا تفعلُ إذا خُطِبَتِ ابْنَتُك وأَرَدْتَ أن تُجهِّزَها وليس لديْكَ مُدَّخَرٌ مِنَ المالِ ؟ هل تَقترِضُ ؟ ومَن يُقرِضُك ؟ وإذا أقرضَك أحدٌ فمِنْ أينَ لك الوفاءُ بالدَّيْنِ ؟ فَكِّرْ !

وكانا يقولان لصيَّادٍ ثانٍ :

ـ وأنتَ ماذا تفعلُ إذا أقعدَكَ المَرَضُ عن العملِ والكَسْب ؟ هل تبعثُ بأَوْلادِكَ مُسْتَجْدِين في الطريق ليجمعوا لك ثمنَ العلاجِ والدواء ؟ فَكِّرْ !

وكانا يقولان لثالثٍ :

ـ وأنتَ ماذا تفعلُ إذا أَدْرَكَتْك الشيخوخة وأصبحتَ عاجزاً عن الخروج

إلى البحيرة للعمل فيها ؟ هل تعيشُ على فَضَلاتِ الإحسانِ ، وقبولُ الإحسانِ أَمْرٌ لا يَليقُ بكرامةِ الإنسان ؟ فَكِّرْ !

ثم كانا يقولان لهؤلاء وأمثالهم من الصيادين :

ـ نحن لا نسعى لإنشاءِ الجمعيةِ طَمَعاً في أموالِكم . إنَّمَا نريدُ أن يَجِدَ فيها كلُّ وَاحدٍ مِنَّا مَلْجأً يَلُوذُ به في أوقاتِ المِحَنِ والشدائد . يأخذُ المحتاجُ مِنَّا من صُندوقها في عِزَّةٍ وكرامةٍ وهو يعلم أنه يأخذ من مَالِه المدَّخَرِ له .

علينا أن نَـرْعَى أنفسَنا بأنفسِنا حتى يُقَيِّضَ الله لنا ولأَمْثَالِنا مَن يَعتَنُون بأمورنا » .

بمثل هذا المنطقِ الواقعيِّ الصريحِ كَانَا يواجهان المعارضةَ ويُبدِّدَانِ الغِشاواتِ عنِ العيونِ ، فترى واقعَ أمرها على حقيقتِه مُؤلماً مُرعِباً !

وبدأ مشروعُ الجمعيةِ يَلْقَى أنصاراً ويكسِبُ مؤيدين على تَوالي الأيام . وظهرتِ الاستجابةُ ، أولَ ما ظهرتْ ، في صُفوفِ الشبَّان من الصيادين ، ثم حَذَا حَذْوَهم آخرون ، ولا سِيَّما بعدَ أن عَرَفُوا أنَّ قيمةَ الاشتراكِ ليست بالشيءِ الكثير . فَمَنْ منهم لا يستطيعُ أن يدخرَ قِرْشاً واحِداً في اليوم ؟

وهكذا أخذ صندوقُ الجمعيةِ يتجمعُ فيه من هذه القروشِ شهريًّا جنيهاتٌ وجنيهات . ثم بدأَ أعضاءُ الجمعيةِ يلمَسُون فَضْلَها عليهم .

وقد ظهر هذا عندما أراد شابٌّ منهم أن يتزوجَ ولم يكن لديه ما يكفي لمشروعه ، ثم تلفَّتَ فلم يَجِدْ بِجانبِهِ أحداً يُعينُه ويُقرضُه قرضاً حَسَناً إلَّا صُندوقَ الجمعيةِ الذي سَاهَمَ فيه بقروشه !

وظهر ذلك أيضاً عندما تُوُفِّيَتْ زوجةُ صيَّادٍ لا يملِكُ ثمنَ الكَفَنِ ، ثم تَلَفَّتَ فلم يَجِدْ إلاَّ صُندوقَ الجمعيةِ يحمِلُ عنه عِبْءَ هذا الواجب !



ثم أخذتِ المفاجآتُ الطارئةُ من يومٍ إلى آخرَ تكشِفُ عنْ مَدَى نفعِ الجمعيةِ لهم ، فآمنَ بها حتى المتردِّدُ والحاقدُ والجاحِدُ ، وبدأوا شِيباً وشُبّاناً يدخلون فيها أفواجاً ... !

وهكذا بعدَ كفاحٍ دام أكثرَ من ثلاثة أعوامٍ تهيَّأَ للشقيقَيْن التَّوْأَمَيْنِ النصْرُ ، ووُجِدَت الجمعيةُ حَدَثاً جديداً في حياةِ صيَّادي البحيرةِ وحِصْناً يَلُوذون به في أوقات الشدائد !

١٠

ثم جاء دَوْرُ النَّادِي ...

جاءَ دَوْرُ إنشائه وقد تمَّ لهما أمران : تجربةٌ لم تكنْ لهما عندَ إنشاء الجمعية ، وثِقةٌ يتمتَّعان بها بينَ صُفوفِ الصيَّادين . ولهذا كان تحقيقُ فكرتِه أسهلَ بكثيرٍ عليهما من تحقيقِ فكرةِ الجمعية .

لم يكن نَادِياً بالمعنى المعروف ، وإنما كان نادياً متواضعاً في غرفةٍ مستأجَرةٍ . ومع هذا فقد كان فرَحُهم به عظيماً . فهذه أوَّلُ مرةٍ في تاريخ حياتِهم يكون لهم مكانٌ خاصٌّ يَضُمُّ شَتاتَهم ، ويُؤَلِّفُ بينَ قلوبِهم ، ويجمعُ كلمتَهُم ، ويقرِّبُ بينَ أفكارِهم .

كانوا يتَرَدَّدُون عليه في أوقاتِ فراغِهم فيشرَبون القهوةَ والشَّايَ ويتحدَّثُون ويَسْمُرُون ، ويُمارِسُون كلَّ ما يأْلَفُون أو يوَدُّون من ألوانِ النشاط .

وذاتَ مَساءٍ جلس بَشير بينَ جماعةٍ من زُملائه في النادي يُحَدِّثُهم عن رَغْبتِه هُوَ واخيه في تعليمهم القراءةَ والكتابةَ . وضَحِكَ الحاضرون من الفكرة وراحُوا يَتندَّرُونَ بها ، كأنَّهم يرَوْن ذلك أمراً مستحيلاً . وصاح ببشيرٍ صيَّادٌ عجوزٌ وهو لا يكاد يُمسِكُ نفسَه من الضَّحِك :

ـ أيَّ قراءةٍ وكتابةٍ تريدُ يا بُنَيَّ أن نتعلَّمَها ؟ وما فائدةُ ذلك لأمثالِنا مِمَّنْ أصبحوا على حَافَةِ القبر ؟ إن فكرتَك هذه تذكِّرني بالمثَل العاميِّ الذي يقول : « بعدَ ما شابْ وَدُّوه الكُتَّابْ ! » .

فرَدَّ عليه بشيرٌ جادًّا بقوله :

ـ إن ما ذكرتُه ، يا عمِّي ، ليس إلاّ مُجرَّدَ اقتراحٍ . ولاَ أَحَدَ يُكرِهُ أَحداً على ما لا يَوَدُّ . فمَنْ شاءَ فأنا وأخي في خِدمته !

وعاد الصيادُ العجوزُ يصيحُ ببشير :

ـ نحن يا بُنَيَّ صيَّادون ، حِرْفَتُنا الاشتغالُ بالصيدِ في البحيرة . فما فائدةُ القراءةِ والكتابةِ لنا في عَملِنا ؟ نحن نَصيدُ ما نَصيدُ ثم نَبيعُه دونَ أن نحتاجَ في هذه العمليةِ إلى ورقةٍ وقلَم . أُذكرْ لي إنِ استطعتَ ، فائدةً واحدةً تعودُ علينا من اقْتراحِك ، وستَجِدُني أوَّلَ الجالسين أمامَك لِتعلُّم القراءةَ والكتابةَ .

وتَطَلَّعَتِ الأَعْيُنُ إلى بَشير تَترَقَّبُ ما يقول ، وقبلَ أنْ يَهُمَّ بالجواب انْبرى أخوه محمدٌ يَرُدُّ على السائل :

ـ قد لا يكونُ للقراءةِ والكتابةِ فائدةٌ في عملِكَ الخاصِّ ، ولكنَّ هذا لا يَعْني عَدَمَ فائدتِهما لكَ في حياتِك عامَّةً . ماذا تفعلُ إذا وَصلَ إليكَ خطابٌ خاصٌّ ؟

ـ أُعطِيهِ لشخصٍ مِثلكَ يقرَؤُه لي ..

ـ ألاَ تشعرُ عِندئذٍ بالخَجَلِ من نفْسِك ؟ وهَبْ أنَّ بالخطابِ سِرًّا .. ألاَ يجوزُ أن يُفْشِيَ القارئُ هذا السِّرَّ فيعرِّضَك للضَّررِ ؟ ثم ألمْ تَشعُرْ مرَّةً بالخجلِ الشديدِ ، وأنت تَبصِمُ بإبْهامِك بَدَلَ أن توقِّعَ بكتابةِ اسمِك ، إذا اقتضَى ذلك أمرٌ من الأمور ؟ ولاَ بُدَّ أنك رأيتَ مرَّةً إنساناً يقرأُ في كتابٍ

أو مجلّةٍ أو جريدةٍ .. ماذا كان شُعورُك ؟ ألمْ تشعُرْ بالنَّقْصِ ، مع أن هذا الإنسانَ لا يمتازُ عنك إلاَّ بأنَّه عرَفَ نفعَ التعليمِ فتعلَّمَ ؟ ألَا ترَى في كلِّ ذلك فائدةً واحدةً تُرَغِّبُك في تَعلُّمِ القراءةِ والكتابةِ ، وتُشعِرُك بضَرُورتِهما ، وتُوَفِّرُ على نفْسِك هذا الخاتَمَ المعدِنيَّ الذي يُزعجُك ضَياعُه ويُضايقُك الحِرْصُ عليه ؟

وتطلَّعَ محمدٌ إلى وُجُوهِ الجالسين لِيَرى أثَرَ كلامِه عليهم ، فإذا وُجُوهُهم وعُيونُهم تُوحِي بِمَا يُشْبِهُ الاقتناعَ ! وإذا الصيادُ العجوزُ قد فارقَتْهُ ابتسامتُه التَّهكُّميَّةُ وحَلَّ محلَّها الإصْغَاءُ والاهتمامُ ! ورَأَى محمدٌ في ذلك مُشجِّعاً له فاسْتطردَ يقول :

ـ ثم هناك أَمْرٌ آخَرُ هَامٌّ . فالله قد وَهَبَ لِلإنسانِ بجانبِ القوَّةِ الجُثمانيَّةِ قُوىً أُخْرَى يُوقظُها التعليمُ ويُنَمِّيها .

فالعامِلُ غيرُ المتعلمِ لا يَصلحُ غالباً إلاَّ للأعمالِ اليدَويَّةِ فَحَسْبُ ، وهو في هذا أشبهُ بالحيوان ! بل إنَّ مِنَ الحَيوانات ما هو أَقْوَى منه ، فَيَحمِلُ منَ الأثقال ما يَعجِزُ هُوَ عن حَمْلِه !

إنَّ هذا العاملَ سيَظَلُّ البقيةَ الباقيةَ من وسائِلِ النقلِ البُدَائيَّةِ التي ظهرتْ بظهور الإنسان . وكأنَّ ملايين السنين التي خلَتْ لم تكُنْ كافيةً ، لتدفعَ به خُطوةً في سبيل التقدُّمِ !

ثم ماذا يكون مَصيرُ مثلِ هذا العاملِ ، إذا فَقَد السِّلاحَ الذي يكسِبُ به رِزْقَه ؟ أعني إذَا بدأَتْ قوَّةُ عَضَلاتِه تَخْذُلُه ولا تُسعِفُه ؟ إنَّ الجوابَ عن هذا السؤال يُقدِّمُه لنا عشَراتٌ وعشراتٌ من إخواننا ، مِمَّن تخلَّتْ عنهم قُواهُم البدَنيَّةُ ، وأصبحوا يعيشون بيننا عاجزين !

فإذا كان بيننا مَن لا يزال يَرتابُ في ذلك فَلَهُ رَأْيُه . أمَّا أنا وأخي فقد صَمَّمْنا على تعليمِ القراءةِ والكتابةِ لمَن يُريدُ . فمَنْ شاء فَلْيُحْضِرْ كُرَّاسَةً وقلَماً ولْينتظِرْنا غداً في المَساء » .

كان عَدَدُ مَن أَقْبلُوا على تعلُّم القراءةِ والكتابةِ قليلاً في أوَّلِ الأمرِ ، ثم أخذ العدَدُ يزداد يوماً بعدَ يوم ! وكَمْ كان فَرَحُ هؤلاءِ شديداً عِندما وَجَدُوا أنفسَهم بعدَ مُدَّةٍ يقرءُون ويكتبون جُمَلاً !

وكَمْ كان زَهْوُهُم أشدَّ وهم يحملون كُتُبَهُم وكُرَّاسَاتِهم ويَسيرون بها في الطريق ! لقد كانوا يحملونها ، كالأطفال ، على شَكْلٍ ظاهرٍ . وكأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يَوَدُّ أن تَتطَلَّعَ إليه الأنظارُ وأن يَعرِفَ الجميعُ أنه لم يَعُدْ أُمِّيّاً جاهلاً .

وهكذا نجحَ الشقيقان التَّوْأمانِ وتمَّ لهما بالكفاحِ والصبر والإيمانِ ما أرادَا من إنشاءِ الجمعيةِ والنادي .

ولكنَّ والدَهُما ظَلَّ ، كما كان ، بَعيداً ... بَعيداً جداً عَنِ الجمعيةِ لا يشتركُ فيها ولا يَغْشَى نادِيَها . ولا أَحدَ يَعرِفُ لماذا ... ؟

١١

كانتِ الشمسُ مُشرقةً والسماءُ صَحْواً تُبَشِّرُ بيومٍ جميلٍ ، حينما خرج الصيادون ذات صباحٍ من أيامِ الشتاءِ بقواربِهم وشِباكِهم للصيدِ كعادتِهم .

وكانتِ البحيرةُ هادئةً إلاَّ مِن نسائمَ واهنةٍ تداعِبُها ؛ كأنَّما تريدُ إيقاظَ أمواجِها لتستأنفَ نشاطَها وجَرَيَانَها .

وكانتْ أشعةُ الشمس تَنعكِسُ على صَفْحةِ البحيرةِ ، فتُحيلُ مِياهَها إلى نُضارٍ سائلٍ تارةً ، وإلى لُجَيْنٍ ذائبٍ تارةً أُخرَى .

وكانتِ القواربُ منتشرةً هُنا وهُناك بين كَبيرةٍ وصغيرةٍ ، مُسرعةٍ ومُبطِئةٍ . وكان الصيادون مُنهمِكِين في أعمالهم : فمنهم مَن يَجْدِفُ ومَن يُلقي بشَبَكتِه في الماء ، ومَن يُغَنّي مُعبِّراً عن غِبْطَتِه بجمالِ ما حَوْلَه !

وظلُّوا على هذه الحالِ ساعاتٍ مِنَ النهار ؛ يتنقَّلون من مكانٍ إلى مكان ، ويُلقُون بشباكهم في البحيرةِ فارغةً ثم يخرجُونها مَلآنةً بالسَّمَكِ ... ثم يُلقُون بها ثم يُخرجُونها .

وإذا رأيتَهم وَقتذاكَ رأيتَ جيشاً من الصيَّادين يُطارِدُونَ السَّمَكَ في كلِّ مكانٍ ، وَيَتَتَبَّعُونَه في كلِّ مَكْمَنٍ يَلجأُ إليه ، ويَفْتَنُّونَ في طُرُقِ الإيقاعِ به واصطيادِه .

واسْتَهْوَتْهُم هذه المطارَدَةُ ، فأَوْغَلُوا في البحيرة حتى اختفى الشاطئُ عن نَواظرهم ، بما عليه من أكواخِهم المُتناثرة .

وفجأةً تلبَّدتِ السماءُ بالسُّحُبِ ، واحتجبتِ الشمسُ ، وقَوِيَتِ الرياحُ واشتدَّتْ ، ونشِطتِ الأمواج . ولكنَّ الصيادين مَضَوْا في عملهم غيرَ مكترثين ؛ فما حَدثَ ليس إلاَّ أمراً مأْلوفاً لهم .

ومرَّةً أُخرَى وعلى حينِ فجأةٍ تكاثفتِ السُّحُبُ ، وأظلمتِ السماءُ ، وانقلبتِ الرياحُ إلى عواصفَ ، وظهرَ البرقُ ، ودَوَّى الرَّعْدُ ، وانْهمَرَ المطرُ غزيراً ، وهاجتِ الأمواجُ تعلُو وَتَنْحَسِرُ ثم تعلُو ثم تنحسر ؛ كأنما تريد أن تنشقَّ وتبتلعَ القواربَ بمَن فيها وما فيها .. !

وسُرْعَانَ ما تحوَّلَ عَدَمُ اكتراثِهم إلى حالٍ من الخوفِ والفزعِ لم يألفوها

من قبلُ ! ماذا يفعلون ؟ وإلى أين يَمضُون ؟ وكيف يعودون إلى الشاطئ والخطَرُ مُحْدِقٌ بهم هكذا من كلِّ جانب ؟ وأيَّ الطُّرق يسلكون وقد اختلطتْ عليهم ، فلا يدرون أيُّها يُدْنِيهم منَ الشاطئ وأيُّها يُبعِدهُم عنه ؟

وبين هذه الطبيعةِ الثائرةِ الغاضبةِ أخذُوا يَجْدِفُون ويُصارِعُون الأمواجَ الهائجة ، وأخذتِ القواربُ المنتشرةُ هُنا وهُناك تحاوِلُ التجمُّعَ في مكانٍ واحدٍ ، كأنما يَحتمي بعضُها ببعض !

كان الجميعُ على حالٍ يُرْثَى لها من الهَلَعِ والصياح ، إلاَّ رجلاً واحداً هو « الريسُ » مصطفى ! لقد اطْمَأَنَّ في قاربه يراقبُ كلَّ ما حَوْلَه في هُدوء ، وينظر من حين إلى آخرَ إلى ولدَيْه وهما يَجْدِفان كغيرهم ، وكأنه تمثالٌ جامدٌ !

وفجأةً تطلَّعَ الصيادون إليه كأنما يلتمسون عِندَه الرَّأْيَ . وظَلَّ الرجلُ كما هو لم يُحرِّكْ ساكناً ... ثم صاح به بعضُهم لعلَّه يَقودُهم إلى الطريق المؤدِّيةِ إلى الشاطئ ، ولكنه لم يَزِدْ على أنْ قال لهم :

ـ تصرَّفوا ... كلُّكم خيرٌ منِّي .. ؟

وكأنَّ الخطرَ المُحْدِقَ بهم قد أذهلَهم ، فظَلُّوا يدُورُونَ ويدُورُون حيثُ هم بقوارِبهم دونَ سلوكِ أيةِ طريقٍ خشيةَ الضلال !

وفي حالٍ منَ اليأسِ تعلَّقَتْ أنظارُهم بمحمدٍ وبشير . ولِمٍ لا تَتشبَّثُ أنظارُهم بهذين الشابَّين ؟ ألم يفعلا لهم الكثيرَ على الرغم من حَداثةِ سِنهما ؟

واعتزَّ الأخَوانِ بهذه الثقةِ فتشجَّعا وصَاحَا بهم :

ـ إتَّبعونا في هذا الاتِّجاه . إنه الطريقُ إلى الشاطئ .



وتَبِعهما الصيادون في الاتِّجاهِ الذي أَشارَا إليه ، ولكنْ سُرعانَ ما تبدَّدَ صَمْتُ التمثالِ الجامدِ ، وإذا « الريسُ » مصطفى يَصيح بوَلَدَيْه :

ـ ليس هذا هو الطريقَ . إعْكِسَا الاتِّجاهَ نَصِلْ جميعاً إلى الشاطِئ .

فصاحَ به ولَداه وقد بلغَ بهما الإعياءُ أقصاه :

ـ بل هذا هو الاتجاهُ الصحيحُ . هذا هو الطريقُ .

لم يكَدِ الأَبُ يسمَعُ من ولديه هذا الإصْرَارَ على الخطأ والجهلِ في نظره حتَّى انْتفضَ من مكانه ثائراً كالأسد ، وصاحَ بهما في غضبٍ لم يألَفاه منه :

ـ أقولُ لكما إعْكِسَا الاتِّجاه !

ولكنَّهما لم يَسْتَجيبَا إليه وَمضَيَا في طريقهما إيماناً منهما بأنه الطريقُ الصحيحُ . وزَادَ الأمرَ تَعقُّداً أنْ صَاحَ به بعضُ الصيادين في شيءٍ من الحِدَّة بأنْ يتركَهما يتصرَّفَانِ .

عندئذٍ تقدَّمَ « الريسُ » مصطفى ، ونَحَّى وَلدَيْه بعُنفٍ من مكانِهما حتى كاد أن يُلقِيَ بهما في الماء . ثم أَمسَكَ بالمجدافين وجلسَ يَجْدِفُ في الاتِّجاه الذي أشارَ به . ولما رَأَى زُملاءَه مضطربين في أَمرِهم يَجْدِفون حيثُ هم ولا يتْبعونَه صاح بهم :

ـ يا أغبياءُ ! هذا هو الطريقُ . من أرادَ الرجوعَ سالِماً إلى أهله فلْيَتْبَعْني .

ولم يكنْ أمامَهم إلاَّ أن يَتبعُوه ... !

١٢

وجلس الأخَوَانِ في القارب يَتطلَّعان إلى والدهما وكأنما قد اكتشفاه لأولِ مرةٍ في حياتهما ! جلسَا ينظرانِ بإعجابٍ إلى هذا الشيخ وهو يضربُ

الماءَ بمِجدافَيْه في ثباتٍ وكأنما قد صُبَّ في عَضَلاتِه عَزْمُ أمةٍ وقوَّةُ جيش ..

فما كان يُبالي بثورةِ الطبيعةِ مِن حَوْلِه ، ولا بالأمواج تضرِبُ وجهَه في عُنْفٍ ، ولا بالقارب يميل ويميل حتى ليكادُ الماءُ يطويهِ في جَوْفِهِ . كان يتصرَّفُ وكأنَّ الخوفَ لا يَعرفُ سبيلاً إلى قلبه .

وكان يبدُو وهو يَجْدِف كما لو كان مُوغِلاً في تفكيرٍ عميقٍ يستبدُّ بكلِّ مَشاعرِه . فهو يَجْدِف في اتجاهٍ مَا بعضَ الوقت ، ثم يتراءَى له فيغيِّر الاتِّجاهَ ، ثم لا يلبثُ أن يتحوَّلَ إلى اتِّجاهٍ آخَرَ . والصيادون من ورائه يتْبَعونه في كلِّ اتِّجاه .

وفجأةً نظر إلى مَن حَوْلَه فإذا الوُجُومُ يَغْشاهم ، وإذا الخوفُ يُرْعِشُهم فصاحَ بهم :

ـ يا أغبياءُ ! غَنُّوا . غَنُّوا واضْحكُوا كعادتِكم . لا تنظروا إليَّ هكذا كالأغنامِ الضَّالَّةِ البائسة !

فصاحَ بعضُهم في إنكار :

ـ نُغَنِّي ... ؟ ما هذا الجنونُ ؟ كيف نغنِّي ونحن مُهدَّدُون بالغَرَق ؟

ـ ولكنَّكم لم تَغرَقُوا بَعْدُ ... غَنُّوا حتَّى تَغرَقُوا ... ولن تَغرَقُوا ... فالأشقياءُ من أَمْثالِنا أَعمارُهم طويلة .. !

وبدأَ هو يُغنِّي ... وكأنَّ « الريسَ » مصطفى قد بثَّ في قلوبِهم الخائرةِ شيئاً من شجاعةِ قلبه وثباتِه ، فانتقلت عَدْوَى الغِناءِ إلى أقربِ الصيادين منه فغنَّوْا معه ... ثم إلى مَن هم أَقربُ مِن هؤلاء فغنَّوْا معهم . وما هيَ إلاَّ لَحَظاتٌ حتى كان الجميعُ يَجْدِفون ويُغنُّونَ بإحدَى أغانيهم المحبوبة :

يا ربِّ عَدِّلْهَا
يا ربِّ عَدِّلْهَا
النـــاسْ تحصَّـــلْ رِزْقَهـــا بالنهارْ
وكـــلّ صَنعهْ ورِزْقَهـــا ... أَدَّهـــا
ويـــا ما ناس نايمهْ لغـــير انتظـــارْ
يجيهـــا بردُه رزقَهـــا ... لحدَّهـا
وِاحْنا نشوف الويلْ
بين البحور بالليـــل
تحت الندى والسيل
دا شيء يهدّ الحَيـل
يا ربِّ عَدِّلْهَا
يا ربِّ عَدِّلْهَا

كان محمدٌ وبشيرٌ ينظرانِ في ذهولٍ إلى والدِهما ، وكأنما ينظران إلى شخصيةٍ من شخصياتِ الأساطير . لقد صار هذا الشيخُ الذي كان من قبلُ قابعاً في جانبِ القاربِ سَيِّدَ الموقف . فهو يقود زملاءَه فينقادون له ، ويطلبُ إليهم الغناء فيمتنعون أوَّلاً ثم لا يملكون إلاَّ أن يُغنُّوا ، كأنما قد نوَّمَهم بشخصيته القويَّة . وإذا الخطَرُ المُحْدِقُ بهم قدِ اسْتحالَ إلى ضَرْبٍ من ضروب الرياضة والمخاطرة المُحَبَّبة ! وإذا الإعياءُ الذي نالَهُم وأَجهدَهم يتبدَّلُ إلى قوَّةٍ مُجدَّدةٍ !

واسْتمرَّتِ الحالُ على هذا المِنْوال ساعاتٍ وساعاتٍ . فالنهارُ قد أوشك أن ينتهيَ ، والمَساءُ قد دَنَا ، والمطرُ قدِ انْقطعَ ولكنَّ العواصفَ كانتْ لا تزال قويَّةً عاتيةً ، والأمواجُ هدَّارةً صاخبةً ، والغِناءُ عالياً متواصلاً ..

ثم بدأَ الظلامُ ينتشر ويَلُفُّ قافِلَةَ الصيادين الضالَّةَ ، فإذا هيَ تستحيلُ إلى أشباحٍ مضطربةٍ تُسمَعُ ولا تكاد تُـرَى !

والشاطئ المأمولُ لا يزال قَصِيًّا مُحَجَّباً . وكاد اليأسُ يتسرَّبُ إلى نفوسهم من جديد .

وفجأةً صاحَ محمدٌ مُشيراً بيده صَوْبَ أنوارٍ خافتةٍ بدأتْ تلُوحُ من بعيد :

ـ انظروا .. هل تَرَوْنَ هذه الأنوارَ ؟ إنها أنوارُ أكواخِنا . كِدْنا نَصِلُ سالِمين .. !

ولم يكدْ يَراها رِفاقُه الصيَّادون حتى صَاحُوا مُهَلِّلين من شدةِ الفرَح ، ثم انطلقوا بقواربهم كالسِّهام حتى وصلوا إلى الشاطئ وقد بلغَ الإعياءُ منهم كلَّ مَبلغٍ .

١٣

وعلى الشاطئ عند عَوْدتِهم كان منظرٌ آخَرُ . كانت هُناك جُموعٌ مَذعورةٌ من شيوخٍ ونساءٍ وأطفال . كلُّ هؤلاءِ خَفُّوا إلى الشاطئ منذُ هبوبِ العاصفةِ ينتظرون على أَحَرَّ من الجَمْرِ عَوْدةَ ذويهم .

وعلى الشاطئ قَضَوْا ساعاتٍ طويلةً بطيئةً يتوزَّعُهُم فيها اليأسُ والرجاءُ ، وتستبدُّ بهم الهَواجسُ والخواطرُ السوداءُ . لا يَدْرُون أيتغلبُ عائِلُوهُم على الطبيعةِ الثائرةِ فيعُودُوا إليهم سالمين ، أم تتغلبُ عليهم هذه الطبيعةُ ، فتُلقِيَ بهم في جَوْفِ البحيرةِ طعاماً للسمكِ الذي طالما طَعِموا به وعاشُوا عليه ؟

ثم كتبَ اللهُ النجاةَ للعاملين الكادحين في طَلَبِ الرزقِ فعادُوا بعد يأسٍ إلى أهليهم . وما كان أرْوَعَهُ لِقاءً جَرَتْ فيه دموعُ الفرحِ بالعودةِ والسلامة !

فهذا شيخٌ يعانقُ ابنَه ، وهذه زوجةٌ تُقَبِّلُ زوجَها ، وذاك طفلٌ يتشبَّثُ بثيابِ أبيه المبتلَّةِ ! كان الجميعُ في لهفةٍ واشتياقٍ كأنما يَرَوْنَ بعضَهم بعضاً بعد غيابٍ طويل .. !

وأخيراً هدأتْ عاصفةُ اللقاءِ ، واطمأنَّتِ القلوبُ التي كانتْ من قبلُ وَاجفةً ، وعادَ كلٌّ إلى كوخِه يُحيط به أهلُه وأقاربُه . ثم أقْفَرَ الشاطئ فلا تكادُ تسمعُ إلاّ زَمْجَرَةَ العواصفِ وهَديرَ الأمواجِ ! !

١٤

جلس « الريسُ » مصطفى في فِناءِ الكُوخِ يتناولُ طعامَ العَشاء مع أُسْرته . وكانتِ الزوجةُ والأمُّ من شدةِ فَرَحِها بعَوْدةِ زوجِها وولديها سالِمِينَ لا تدري ماذا تفعل ، ولا ماذا تقدِّمُ لهم ! لقد زَحَمتِ المائدةَ بالطعام ، ثم جلستْ بين ولدَيْها . ولم تكدْ تأكلُ لقمةً حتى نَهضت واخْتفتْ بعضَ الوقتِ في حجْرةٍ مجاورةٍ ، ثم عادتْ تحملُ كَمِّيَّةً أخرى من الطعام . ولم تكدْ تأخذ مكانَها بين وَلدَيْها وتستقرُّ قليلاً حتى نَهضَتْ ثانيةً وهيَ تقول :

ـ آه .. لقد نَسِيتُ أَهمَّ شيءٍ كنتُ أَعْدَدْتُه لَكُمُ اليَوْمَ .

وهنا صَاحَ زوجُها في ابتسامةٍ مِلؤها الحبُّ والشفقةُ :

ـ مَا كُلُّ هذا ؟ اجلسي واستريحي . هل تظنين أنَّنا غِيلانٌ ؟ إنَّ هذا الطعامَ يكفي لوليمةٍ لا لأربعةِ أشخاصٍ !! اجلسي اجلسي . أُقْسِم أَنَّكِ لم تأكلي شيئاً اليومَ !

وأَشاعتْ هذه الكلماتُ الرِّضَا والغِبْطَةَ على وجْهِ الأُمِّ ، فجلستْ أخيراً بين وَلدَيْها لا لتَأْكُلَ في الواقع ولكنْ لِتُؤَكِلَ الجالسين ! ثم سادَ الصمتُ لحظةً .

وكأنَّما كان كلُّ واحدٍ منهم يَستعيدُ حوادثَ اليومِ منظراً منظراً . وفجأةً قال بشيرٌ مُوَجِّهاً الكلامَ إلى أمه :

ـ هل تعلمين أن الفضلَ في نجاتِنا جميعاً اليومَ يرجعُ إلى والدِنا ؟ لولاه لَكُنَّا الآن طَعاماً للسمك ! فهو الذي قادَنا خلالَ العواصف . وكان كُلَّما رَأَى اليأسَ يَبدُو على وُجُوهِ بعضِنا هَوَّنَ الأمْرَ علينا بما يجعلنا نُواجهُ الخطرَ ولا نَخشاه ! لقد كنتُ دائماً أفتخرُ بأَبِي وأزعُمُ أَني أَعرِفُه . ولكنّي أُقِرُّ بأَني لم أعرِفْهُ على حقيقتِه إلا اليومَ . فقد أَتى من أعمالِ الشجاعةِ ما يَفُوقُ الوصفَ !

عندئذٍ قالتِ الأمُّ في دُعابةٍ لطيفةٍ :

ـ لو لم أكنْ أعرفُ عن والدِك كلَّ ما ذكرتَ يا بُنَيَّ ما تَزَوَّجْتُه ! ولو عُدْتُ الآنَ فتاةً في سِنِّ الزواجِ ما تزوجتُ غيرَه !

وهنا تدخّل محمدٌ مخاطباً والدَه :

ـ كنت أراقِبُك وأنا في القاربِ طَوالَ الوقتِ ، وقد لاحظتُ وأَنتَ تَجْدِفُ أنك كنتَ مستغرقاً في التفكير . فَفِيمَ كنتَ تُفكِّر ؟

فأطرق الوالدُ بُرْهَةً كأنَّما كان يَستجمعُ شَتَاتَ خواطره ثم قال :

ـ كنتُ أُفكِّر في النجاة ... لا في نجاتِنا وَحْدَنا ولكنْ في نجاةِ الآخرِين . حينما نحَّيْتُكما وأَخذْتُ أَجْدِفُ ، وحينما تبِعَني الجميعُ بَدأْتُ أشعر يا بنيَّ بمسئوليةٍ هائلةٍ ، وبأَني راعٍ مسئولٌ عن رَعيَّتِه .

كنت أَشْعُرُ أنَّ مَصيرَ كلِّ واحدٍ منكم قد صارَ أَمانةً في عُنُقي . ومن أَجْلِ ذلك كنتُ أحاولُ الاستعانةَ بتجاربي على تذَكُّر طُرُقِ البحيرةِ ، وتحديدِ الاتِّجاهِ ، وتلمُّسِ الطريقِ المؤديةِ إلى الشاطئِ .

كان أيُّ انحرافٍ في الاتِّجاهِ ، أو أيُّ خطأٍ في تقديرِ الطريقِ كفيلاً بأن يُطيلَ أَمَدَ حَيْرتنا في البحيرة . ومَن يَدْري ، فربما كان قدِ انتهى بنا إلى الهلاك !

ذلك يا بنيَّ ما كنتُ أفكِّر فيه . ولعلَّك سَمِعْتَ بالمَثل العربيِّ الذي سمعتُه مَرَّةً من إمامِ مَسجدِنا :

« إذا زَلَّ العَالِمُ زَلَّ بزَلَّتِه عَالَم » .

قال محمد :

ـ ما أصْدَقَهُ مثلاً يَنطبِقُ على ما كان منكَ اليوم ! وما أجدَرَ أن يَعِيَهُ كلُّ إنسانٍ ويعملَ به في حياته ! لا يا أَبي لم أسمعْ هذا المَثَلَ من قبلُ ، ولـكنِّي سمعتُ وأنا في المدرسة بيتين من الشِّعرِ في نفسِ المعنى :

إنَّ الفقيـهَ إذا غـوَى وأَطاعَـهُ
قَوْمٌ ، غوَوْا مَعـهُ فضاعَ وضَيَّعَـا
مثلُ السفينةِ إنْ هـوَتْ في لُجَّـةٍ
تَغْرَقْ ويَغْرَقْ كلُّ مَن فِيهـا مَعَـا

قال بشير :

ـ إنَّ ما سمِعتُ منكما يُذَكِّرني بقصةٍ رَوَاها مرَّةً لنا مُدرِّسُ اللغةِ العربيةِ، قال : « كان الإمامُ أبو حنيفةَ سائراً ذات يومٍ مع بعضِ تلاميذِه . وفي الطريقِ قابله غُلامٌ يلعبُ على شاطئ النهرِ بالقُربِ من الماء . فخشِيَ الإمامُ عليه السُّوءَ فناداهُ قائلاً : تجنَّبِ الخِضَمَّ يا بُنيَّ فقد تَزِلُّ قدمُك فتغرَقَ . فرفعَ الغلامُ وَجْهَه إلى أبي حنيفةَ وقال : بلِ احْذَرِ الخِضَمَّ أنتَ يا إمامُ ! فإني إذا زَلَّتْ قدَمِي غَرِقْتُ وَحْدِي . أما زَلَّتُكَ أنتَ فإنها تَذهبُ بخلقٍ كثيرٍ ... »



قال الوالدُ :

ـ ما أشبهَ شِعْرَكَ يا محمدُ وقصتَك يا بشيرُ بمَثَلي ! ولَيْتكما تذكُرانِ كُلَّ ذلك وتعملانِ به دائماً في حياتِكما . وبهذه المناسبةِ ، هل تعرِفانِ أني عزَمْتُ على أنْ أَشتَرِكَ منذُ الغدِ في الجمعيةِ والنادي ؟

١٥

لم يكدْ يَسْمَعِ الأخـوانِ بما عَزَمَ عليه أبوهما حتى اسْتولَتْ عليهما الدَّهْشَةُ ! لقد جعل كِلاَهُما ينظرُ إلى الآخرِ في عجَبٍ وتساؤلٍ ، كأنهما لم يُصدِّقا ما سَمِعا . ثم مَرَّتْ لحظةُ صمتٍ انطلق بعدَها بَشيرٌ صاحبُ فكرةِ الجمعيةِ يخاطب أباه :

ـ ولكنَّك يا أبي رَفَضْتَ الاشتراكَ في الجمعيةِ عِندما عرَضْنا الأمرَ عليك . وأذكرُ أنك وصفْتَ المشروعَ وقتذاك بأنه مشروعٌ خياليٌّ . وأكثرُ من هذا ، طَلبتَ إلينا أن نتركَ هذه الأفكارَ الغريبةَ وننصرِفَ إلى عملنا . فما الذي جَدَّ حتى تَغيَّرَ رأيُكَ هكذا اليومَ ؟

وصمَتَ الشيخُ المجرِّبُ لحظةً وعلى ثَغرِهِ ابْتِسَامةُ الأبِ السعيدِ بوَلدَيْه ، ثم قال :

ـ جَدَّتْ أمورٌ كثيرةٌ بلا شَكٍّ . إنكما تعرفان مكانتي بين إخوانِنا الصيادين ، فلو اني اشتركتُ في الجمعيةِ حينما عرضتُما الأمرَ عليَّ لَسارَعُوا إلى الاشتراك فيها إرضاءً لي . عِندئذٍ كان فَضْلُ إنشائها سَيُعْزَى إليَّ لا إليكُما . وأقبحُ الرذائِلِ أن يَرضَى المرءُ بأن يُنسَبَ إليه فَضْلُ غيرِه أو أن يُغِيرَ على فَضْلِ غيْرِه !

ومن ناحيةٍ أُخرَى ، أَردْتُ أن تُجرِّبا حظَّكما غيرَمتأثِّريْن برَأْيي ومُعتمدَيْنِ على تأييدِي . أردتُ أن تُفكِّرا وتعمَلا كما لو كنتُ غيرَ موجودٍ .

أردتُ أن ينشأ كلٌّ منكما مُستَقِلاً بشخْصِه ، حُرًّا في فكرِهِ ، مُعتمداً على نفسِه ، حتى إذا آمَن بشيءٍ سعَى إلى تحقيقِه لا تَزيدُه الصِّعابُ إلا إصراراً على بلوغ غايتِه وَإصَابةِ هدَفِه .

والآن وقد أثْبتُّما قُدْرَتَكما ، وصارتِ الجمعيةُ والنادي حقيقةً ملموسةً بفضلِ مجهودِكما ، لا يَسَعُني إلا أنْ أشترِكَ فيهما فَخُوراً بكما » .

لم يكدِ الأبُ يصِلُ في حديثِه إلى هذا الحدِّ حتى بادَرَهُ محمدٌ بقولِه :

ـ ما أسعدَنا بك يا أبي ! لا تزالُ الحوادثُ تكشِفُ لنا كلَّ يومٍ جانباً من شَخصيَّتِك كان مجهولاً . وإنَّ فرحَنا الليلةَ بعزمِك على الاشتراكِ في الجمعيةِ والنادي لَيَرْبُو وَيزيدُ على فَرَحِنا بالنجاةِ من خَطرِ اليوم . ولا أُخفي عليك أَنَّ عَدَمَ اشتراكِك كان يَحُزُّ في نفْسي ونفْسِ بشير . وكانَ مَدْعَاةً دائماً لِلتَّساؤُلِ والعجَبِ منَ الجميعِ . ولكنَّكَ أبَيْتَ إلاّ أن تحُلَّ اللغزَ الذي طالما حيَّرَنا وحَيَّرَ الأعضاءَ حَلاًّ سعيداً . فشكراً لك ، ومَرْحَباً بك عُضْواً في الجمعيةِ والنادي .

* * *

أطرقَ الوالدُ لحظةً ثم رفعَ رأسَه وقد بَدَا على وَجْهِه شيءٌ من الوجُوم . وفي عينيه شيءٌ من الترَدُّدِ ، ثم بدأ يخاطبُ وَلدَيْهِ في شيءٍ منَ التَّلَعْثُمِ والارتباكِ كأنَّه خَجِلٌ منْ نفسِه :

ـ لا تزالُ لي أُمْنِيَةٌ أُريدُ تحقيقَها !

فبادرَهُ محمدٌ على الفَوْرِ :

ـ أَيُّ أمنِيَّةٍ يا أبي ؟

ـ أُريدُ أن أَعرِفَ كيف أقرأُ وأكتبُ كالمتعلِّمين ! أو على الأقلِّ أريدُ أن أعرفَ كيف أكتبُ اسْمي !

فقال محمدٌ مُطَمْئِناً والدَه :

ـ ما دَامت هذه رغْبَتُك فسوف نعلِّمُك منَ الغدِ ، إذا شِئتَ . والرغبةُ ، كما تعلم ، نِصفُ النجاح . وسوف تَـرَى في القريبِ كيف أنَّ القراءةَ والكتابةَ أَمْرٌ سهلٌ . وسوف نَجعلُك أَحْسنَ الصيَّادين قِراءةً وكِتابةً ، كما أنت أحسنُهم عِلْماً بِشئُون الصَّيدِ .

فأجابَ الوالدُ في فَرحٍ عظيم :

ـ الآنَ طاب ليَ السرورُ ! وسوف تَجِدانني تلميذاً مُطيعاً مجتهداً !

وإلى هنا بدأ الرجلُ يَتثاءبُ ، فنهضَ من مكانِه وهو يقول :

ـ يا لله ! لقد استغرَقَنا الحديثُ ، والحديثُ ذو شُجُونٍ . هَيَّا بنا نَخْتَلِسْ ساعاتٍ من النوم . ومَوْعِدُنا غداً عَقِبَ صلاةِ الفجر . فالقارِبُ ، كما تقول أُمُّكما دائماً ، على الشاطِئِ ، والسَّمَكُ في البحيرة . ونحن ، كما يَبدُو ، على أتمِّ استعدادٍ لِلسَّعْيِ والكفاحِ من جديدٍ في طَلَبِ الرزقِ . أليسَ كذلك ؟ »

مطابع الشروق

بيروت : مار الياس ـ شارع ستّيدة صيدنايا ـ بناية صفا
ص.ب : ٨٠٦٤ ـ برقياً : داشروق ـ تلكس ٢٠١٧٥ LE
[redacted] ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٤١٣ ـ ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ ـ ٣٠٧٩٨٤


حكايات الشروق
البلبل والفلاح
مالك السعيد
زوجة السلطان
نداء البحيرة
الصياد والسمكة
القاضي العادل
القطتان
المهرج
البقرة الحمراء
الفأر طويل اللسان
أرض الذهب
النهر الذهبي
الريح الشمالية